نجيب بلخوجة

شئ في صدري: بقلم: أولاد أحمد

1 نشر في الشعب يوم 29 - 09 - 2007

في أواسط الثمانينيات، من القرن العشرين، تعرفت على الرسام التونسي: .

كنت أنا قد قدمت، منذ سنوات قليلة، من الجنوب التونسي، وقررت ان أكون شاعرا... وكان هو قد بلغ أوج شهرته وعطائه الفني.

كانت قامته الطويلة والنحيفة توحي بأنني امام مبدع حقيقي ونادر شبيه بأولئك الذين لا تحتمل أجسادهم أية زوائد. وكانت وسامته التي ورثها عن أمه الهولندية وأبيه التونسي تزيد في تأكيد ما ذهبت اليه في تقييم الرجل.

قال لي خلال أول لقاء جمعنا:

«لا تغادر مكانك أبدا.. على الآخرين ان يسلموا عليك... وليس العكس»

فأجبته:

«امهلني وقتا معقولا حتى أصل بداوتي بأرستقراطيتك.. فالكلام، بعد كل حساب، هو مهنتي وحرفتي».

ثم اتفقنا على ان نكون اصدقاء فطنين لما كانت تحيكه لنا تلك الايام العصيبة من ضنك عيش وسوء طالع، وتلازمنا منذ تلك اللحظة الى حد رحيله في شهر مايو من هذا العام.

(2)

ربع دائرة،

خط عمودي،

وخط أفقي:

تلك كانت عدة وترسانته.

ترسانة تشكيلية قاوم بها، منذ أوائل الستينيات، مدرسة تونس للرسم التي كانت قائمة على إعلاء قيمة الفولكلور نزولا عند ذوق المستعمر وما يبهج عينه في فضاء المستعمرات ذات الثقافة المختلفة عن ثقافته.

بتلك العدّة المكثفة استطاع ان يعيد للعمارة العربية الاسلامية رمزيتها الاساسية دون تقليد لأحد،، كما استطاع بتخطيطاته الهندسية، وبألوانه وأشكاله المنتقاة، ان يكون حاضرا ليس في اطار لوحاته فحسب، بل في سياق بعض الانجازات المعمارية والفضاءات الثقافية التي استوحت تصاميمها من خياله التشكيلي.

(3)

لم يكن يحبّذ الجلوس الى الرسامين، بل كان صديق الشعراء والكتاب والموسيقيين.

كانت الصورة والايقاع همّه الثابت وبذلك توفّق الى ان ينحت له أسلوبا خاصا به.. اسلوبا متمردا على الأنماط المتداولة.

فليلون ونادرون، عبر كل العصور، أولئك الذين يكدحون، بصدق فني، من اجل التناغم التام بين شخوصهم، اي طريقة إقامتهم في العالم، وبين ابداعاتهم، وقد كان بلخوجة واحدا من هؤلاء الى حد التماهي التام.

(4)

لقد اشتكى العديد من المبدعين، عبر التاريخ، من تناسي معاصريهم لهم والبخل عليهم بشهادة تعلي من

قيمة ابداعاتهم، غير ان فرض الاعتراف به اثناء حياته وبعدها دون مقابل او تنازل او تواطؤ. ولعله، بذلك، لم يشعر بضرورة الاستنجاد بشكوى أبي نواس من احد معاصريه:

«لأعرفنك بعد الموت تمدحني

وفي حياتي ما زوّدتني زادي!»

أو بشكوى ابن بلده: ابي القاسم الشابي:

«الناس لا ينصفون الحي بينهم... حتى اذا ما توارى عنهم ندموا!».